وبينهم الا اقوالاً مقتضبة مختزلة يستثيرون بها إحتهم علينا ولو نقلوا اليهم كتابة من يعتد بكلامهم ويوثق بمعرفتهم للاسلام لقبله المنصفون وزال سوء التفاهم الذي تمناه كما تمناه هانوتو وغيره من العقلاء او أشد تمنياً وربما كان فيه الخير للفريقين فعسى ان نصل الى هذه الامنية بالجرائد الشرقية التي تنشر باللغات الاوربية كالمؤيد الفرنسوي في مصر ومحمدان ومسلم كرونكل في الهند وغيرها من الجرائد المسيحية المنصفة والله يجزي المحسنين

باب التربية والتعليم

﴿ باب الولد من كتاب أميل القرن التاسع عشر ﴾

(١٠) من اراسم الى هيلانه في ٣ يونيه — ١٨٥

ان معظم من كتبوا في علم التربية يغالون باصول علم الاخلاق ويرفعون من شأنها وانا مثلهم اعتقد ان المواعظ الحسنة وقواعد التهذيب المفيدة قد تبعث العزائم في بعض الاحوال على القيام بصالح الاعمال ولكني لا اعتقد ان ما يلقفه الناشئون منها من افواه معلميهم في دروسهم يغير طباعهم تغييراً حقيقياً وهيهات ان اعوّل عليها في ذلك فاننا نرى كل يوم في المجتمع الانساني اناساً من الظرفاء الاكياس حفاةً غُلف القلوب على أنهم لم يحرموا من النصائح العامة الداعية الى التحاب والتراحم المرغبة في لذة الاتصاف بهما فما من فاسق او شرير او بخيل الا وقد سمع الف مرة من السنة الوعاظ قولهم «كن حكيما مهذباً تكن عزيزاً مغتبطاً»(١) «لا تفعل بغيرك

(١) الحكمة واردة في امثال سليمان عليه السلام في التوراة بهذا النص وهو

ما لا ترضى ان يفعله بك »(١) « لاتجعل لحطام الدنيا حظاً من قلبك »(٢) الى غير ذلك من النصائح والحكم.

الانجيل كله مواعظ رائقة وامثال شائقة فليت شعري من ذا الذي يراعيها. هل تجدين كثيراً من الاغنياء انفقوا جميع اموالهم على الفقراء بعد سماعهم آية « ان دخول الجمل فى سم المخياط ايسر من دخول الغني فى ملكوت السموات »(٣) هل تلاقين ولو فى القسيسين انفسهم عدداً كبيرا ممن يفضلون عبادة الله (سبحانه) على عبادة الدينار والدرهم؟ هل يرضي اواثل الناس او الذين يعتبرون انفسهم كذلك ان يعاملوا معاملة الأواخر؟ هل يسهل على الحاكمين ان يقلبوا محكومين؟ كلا اننا نرى علماء الدين يتالطون فى فهم نصوص الكتاب مخادعين وجدانهم غاشين ضمائرهم وما اكثر ما يؤولونه منها تخلصاً من قضائها عليهم وفراراً من عواقب الاخذ بصريحها

جاء المسيح يدعو الى السلام فى كل قول من اقواله فهل رأيت الممالك اصبحت اقل قتالاً؟ ندب الى التآخي بقوله الجليل كلكم اخوان »(٤) فهل

« الرجل الحكيم فى عز » (١) نص الكتاب المقدس فى هذا المعنى هو: « وكما تريدون ان يفعل الناس بكم افعلوا انتم ايضاً بهم هكذا » راجع من انجيل لوقا الاصحاح السادس والعدد ٣١ (٢) نص الكتاب فى هذا المعنى هو: « لا تكنزوا لكم كنوزاً على الارض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون بل اكنزوا لكم كنوزاً فى السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ راجع العدد ١٦ و١٩ و٢١ من الاصحاح السادس من انجيل متى (٣) راجع العدد ٢٤ من الاصحاح ١٩ من انجيل متى (٤) نص ما ورد فى الكتاب المقدس فى هذا المعنى هو « واما انتم فلا تدعو سيدى لان معلمكم واحد هو المسيح وانتم جميعاً اخوة » راجع الاصحاح ٢٣ والعدد ٨ من انجيل متى

هدم هذا القول دعائم الاستبداد وعما من النفوس ميلها الى التسلط ؟ توعد من يصلت سيفه بغياً وعدواناً بالهلاك فقال ما معناه « من سل سيف البغي به قتل »(١) فهل ردع هذا الوعيد من كان بيدهم الحول والقوة عن انتهاك حرمة القانون بالبغي والفساد في الارض . قال « من اخذ قميصك فاعطه ردائك »(٢) فلو ان احداً منا معشر الفرنساويين المتشددين في التمسك بالدين اتبع هذا الامر وجرى على نصه حرفياً لسجن في شارنتون(٣) خصوصاً اذا كان له من اقاربه وارثون

لم يختص المسيحيون بهذه المواعظ الحسنة فان لليهود ايضاً والصينيين والفرس كتباً فيها حكمة بالغة وكلم نابغة ولكنهم لم يضيروا بها احسن منا حالا فانه لو كان يكفي في تحسين احوال الناس وتهذيب نفوسهم وجود كتاب مفيد في علم الاخلاق لكانت الدنيا قد بلغت غاية الكمال من زمن طويل لانها والحمد لله لم تخل من علماء الاخلاق يوماً على أننا لانسمع في جميع ارجائها الا أصوات آلام المنكوبين والمكروبين وتحريق الارم من المقهورين المتغيظين .

أرى انه لا ارتباط بين مذهب المرء وبين عمله غالباً الا في الخيال

(١) عبارة الكتاب في هذا المعنى هي : « فقال يسوع رد سيفك الى مكانه لان كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون » راجع الاصحاح ٢٦ والعدد ٥٢ من انجيل متى (٢) عبارة الكتاب هي : « ومن اخذ ردآءك فلا تمنعه ثوبك ايضاً » راجع الاصحاح ٦ والعدد ٤٩ من انجيل متى (٣) شارنتون اسم لقريتين من قرى فرنسا احداهما تدعى شارنتون لويون وهي اشهر قرية في اقليم السين بقضاء سو واقعة على نهر مارن والثانية تسمى شارنتون سور لوشير وهي اشهر قرية في اقليم شير بقضاء سانت امندمونت روند يظهر ان احداهما فيها سجن للمجانين

والوهم فلو ان الخير كله والشر كله كان كل منهما بمعزل عن الآخر في مجرى الحياة وسياق اعمالها لسهل على الناس الحكم فيما اختلفوا فيه من آرائهم ومذاهبهم ولا نقطع من بينهم سبب الخلاف باسرع ما يكون ولكن هيهات ان يكون الأمر كذلك وقد علمت انه لا يعمل منهم بعلمه الا الشذاذ انظري الى اصول الاخلاق الانجيلية مثلا تجدي ان من لا يؤمنون بالوهية المسيح هم في الغالب اكثر اتباعاً لها ورعاية ممن اتخذوا الايمان بتلك الالوهية مهنة لهم .

انا لا اعني بجميع ما قلته هنا ان علم الاخلاق لا فائدة له في التربية وانما الذي اريده بهذا الكلام هو ان احسن ما يوجد بهذا العلم من الاصول في الدنيا باسرها لا ينشىء رجالا كملة مهذبين وقد فهم ذلك حق الفهم واضعوا الشرائع فعززوا مادوّن من تلك الاصول في الكتاب باوضاع تامة للثواب والعقاب .

ثم ان الطفل لا يستفيد مما يلقى عليه من دروس الاخلاق الا اذا كان من الاستعداد والكفاءة بحيث يقدر اسباب اعماله وعواقبها فانّى له اذن ان يفهم هذا الاصل الوجداني وقد وقد حجبه عنه ادراك مشاعره الظاهرة واشتداد اهوائه وشرّة غرائزه ؟ وأنى له ايضاً بان يكون جميع ما يراه من الأسى والامثال من شأنه ان يأخذ بزمام عزيمته الى الخير ويصرفه عن الشر ؟ وليت شعري هل تجري امه دائما على مقتضى ما ترشده اليه من صالح الاخلاق وجميل الصفات ؟ ان الوالد ليلقى على ولده خطبة طويلة في وجوب مواساة الفقراء والاحسان الى المساكين ثم لا يلبث هو نفسه ان ان يلومه اذا اعطى لفقير درهما من الفضة فهو بذلك يبذر باحدى يديه في

ذاكرته اصول الانجيل وينقش بيده الاخرى على قلبه صور النفاق والرياء . اهـ (*)

(١٣) من اراسم الى هيلانه في ٤ يونيه سنة — ١٨٥

يقول علماء الاخلاق كثيراً في تربية الاطفال على قوة القدوة وتأثير الاسوة وانا في هذا موافق لهم ولكن اي والد يصح له ان يتبجح بانه على الدوام قدوة صالحة لولده .

نحن في الجملة نسعى في غش الاطفال وخداعهم بما نتزين به لهم من لباس الرياء الذي يجعلنا في اعينهم احسن مما نحن عليه في الحقيقة والواقع وبما يصدر عنا كثيراً امامهم من الاقوال والآداب المغايرة كل المغايرة لمعتقداتنا وآرائنا الذاتية . وحقيقة الامر اننا نقصد ان نربي طباعهم على ما نشأنا عليه موافقة لحسن رأينا في انفسنا ورغبة في تحقيق غيرنا بهذا الرأي وان نكسوهم من الفضائل ما نتظاهر لهم باننا متحلون به ولكن هيهات ان ينخدعوا بهذه الحيل ومن ظن بهم ذلك فقد اخطأ في فهم معنى سذاجتهم وصفاء قلوبهم خطأ بيناً . الاطفال يعرفون كمال المعرفة ما يعتمدون عليه في كشف مقاصد آبائهم والوقوف على شؤنهم وهم يدركون بالحدس والتخمين ما يجتهد هؤلاء في كتمانه عنهم واني لفي شك من ان هذا الكتمان

(*) المنار — محصل كلامه ان تعليم الاخلاق والآداب قليل الجدوى اذا لم يتربى الانسان عليها عملا وهذا صحيح ولم توضع اصول التهذيب لأجل الدراسة وانما وضعت ليجرى عليها المربون فعلا اقرأ قوله تعالى في وصف النبي صلى الله عليه وسلم « ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » فلم يكتف بالتعليم بل اضاف اليه التزكية وهي التربية العملية على اصول الخير والفضائل

وان حدثت اسبابه يزيدهم في نفوسهم اجلالاً وتعظيماً .

عاقب والد ابناً صغيراً له لم يتجاوز الخامسة من عمره على اكذوبة قالها ولم يكد ينتهي من عقابه حتى دخل عليه خادمه مخبراً له بان زائراً ثقيلاً ينتظره في الخارج . فقال له ذلك الرجل الوقور اخبره بانى لست هنا فيالله من درس يستفيد منه الطفل الصدق والاخلاص

انا على يقين من ان « اميل » لن يجد فيك الا احسن اسوة واكمل قدوة وهذا هو الذي يملأ قلبي اطمئناناً عليه ولكن اقول لك الحق غير مداج فيه ولا مدار وهو ان غرضي من تربيته ان يكون ذا طبع مستقل لا مفرغ في قالب طبع آخر مهما كان لهذا الطبع من الكمال . ولذكر لك هنا واقعة حضرتني الآن تدلك على انى محق في قصدي وهي انى رأيت ذات يوم طفلا في السادسة من عمره راجعاً مع والدته من تشييع جنازة وهو من الاطفال الناجحين المتقدمين جداً على حسب اعتقاد الناس وكان يبكي او يتباكى فارتبت في امره وظننت انه مخطئ في معرفة من فجع به لان المتوفى لم يكن الا ابن عم بعيد له (على ان الاطفال لا يفهمون حقيقة الموت كما تعلمين) فسألته عن سبب بكائه وكدره العظيم فكان جوابه لى ان قال « لا سبب سوى انى رأيت الآن والدتى تمسح عينيها بمنديلها فبكيت » فاضحكني منه هذا التأثر التقليدى وان كان صادرا بلا شك عن طبع ساذج وقلب سليم فلا اريد ان يكون « اميل » مثل هذا الغلام في تأثره بل اود انه متى بلغ السن الذي يرق فيه لمن تصيبه مصيبة ويعطف عليه يكون ذلك منه ناشئاً عن غم كارث الم بنفسه وحزن ممض يضطرم في قلبه

يجب ان يلحق ما يرى من اعمال الحيوانات وسيرها فى حياتها بما للقدوة من التأثير فى التربية . وكيف لا ونحن نرى كتاب الامثال عندنا على بعد مجتمعاتنا من معاهد الفطرة تزدان تآليفهم وتزدهى دروسهم بما يودعونها من سير الحيوانات واخلاقها وان الطفل من اولادنا لا يكاد يقدر على النطق المفهوم والملفظ حتى يحمل على حفظ اسطورة من اساطير لافونتين (١) كأسطورة الصرصار والنملة مثلاً . انا لا انكر ان فى حياة الحيوانات عبراً كثيرة وعلوماً شتى يجب علينا تعلمها ولكنى اقول الا ينبغى لهذا العالم الصغير الذى يحفظ سير هذه المخلوقات الممثلة رواية الكون الكبرى فى مشهده الاعظم ان يعرفها ليهتم بشأنها اهتماماً حقيقياً . فكم نرى من الاطفال الذين نشأوا فى حواضرنا الكبرى وقرأوا اساطير ذلك الكاتب الشهير من لم ير فى حياته تلك المخلوقات التى يحكى لهم قصصها ويمثل لهم احوالها الا قليلا فهم على جهل تام باخلاقها وعوائدها . وفى رأيى ان سليمان (عليه السلام) اعقل من واضعى التعاليم الحديثة اذ قال للكسلان عليك بالتعلم فى مدرسة النملة (٢) فانه دله بهذا الارشاد على ينابيع هم الاخلاق الفياضة لا على حياضه التى لبعدها عن تلك الينابيع لا توجد فيها الا صبابة لا تروى ظمأ ولا تبرد غلة . اه

---

(١) لافونتين واسمه جان دول فونتين من اشهر كتاب الاساطير فى فرنسا ولد فى ساتو تيرى سنة ١٦٢١ ومات سنة ١٦٩٥

(٢) عبارة الامثال في هذا المعنى هي « اذهب الى النملة ايها الكسلان . تأمل طرقها وكن حكيما (هى) التى ليس لها قائد او عريف او متسلط وتعد في الصيف طعامها وتجمع في الحصاد اكلها . » راجع الباب ٦ من امثال سليمان والاعداد ٦ و٧ و٨